نقد الشعر عند العرب قبل الإسلام:
دراسة في المنهج والتطبيق

هدى شلوه حميد اللهيبي*
udaallouhaebe@gmail.com

ملخص

يتناول هذا البحث النقد الشعري عند العرب قبل الإسلام، مع التركيز على تحليل منهجياته وتطبيقاته التي شكّلت جزءاً أساسياً من التراث الأدبي العربي. إذ تميّز النقد الأدبي في تلك الحقبة بخصائص فريدة تتجلى في الاعتماد الكبير على الذوق الفطري والعفوية في إصدار الأحكام، حيث لم تكن هناك منهجية نقدية واضحة أو قواعد محددة توجه النقد. بدلاً من ذلك، اعتمد النقاد على الانطباعات الشخصية واللحظية التي تكونت لديهم عند سماع الشعر، مما أدى إلى أحكام سريعة وارتجالية، تفتقر غالباً إلى التحليل المفصل أو التعليل المنطقي. وقد جاءت هذه الأحكام في كثير من الأحيان موجزة ومباشرة، تعكس بساطة النقد وتناسبه مع طبيعة الحياة البدوية والمجتمع الجاهلي.

يستعرض البحث أيضاً تأثير السياق الثقافي والاجتماعي على النقد الشعري الجاهلي، مسلطاً الضوء على الذوق الفطري الذي كان المعيار الأساسي في تقييم الأعمال الأدبية. هذا الذوق، الذي كان نابضاً بالحس الجمالي والفنّي الطبيعي، يعكس طبيعة المجتمع الجاهلي وثقافته، حيث كان الناس يتفاعلون مع الشعر بشكل مباشر وفوري، دون الحاجة إلى تنظير أو تعقيد.

ورغم البساطة والعفوية التي اتسم بها النقد الأدبي في تلك الفترة، إلا أنه يشكل جزءاً لا يتجزأ من التراث الأدبي العربي. فهو يوفر فهماً أعمق لأصول الأدب العربي وتطوره عبر الزمن، ويساهم في إبراز الجوانب الفنية والذوقية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي. يستنتج البحث أن النقد الشعري الجاهلي كان تعبيراً طبيعياً وصادقاً عن تفاعل النقاد مع النصوص الشعرية، مما يدل على درجة من الذوق الفني والنضج الأدبي في تلك الفترة الزمنية، ويعكس تفرّد الأدب العربي القديم في قدرته على الجمع بين البساطة والعمق.

الكلمات المفتاحية :النقد، الشعر، ما قبل الإسلام، الأدب العربي، الانطباعية.

* باحثة من المملكة العربية السعودية.

المقدمة:

أجمع معظم مؤرخي الأدب العربي على أن الشعر ما قبل الإسلام يشمل مجموعة الأشعار التي قيلت خلال الحقبة التاريخية التي عاشها العرب قبل ظهور الإسلام بقرنين على الأكثر. وقد ذكر الجاحظ: "وأما الشعر، فحديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله، وسهّل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حُجْر، ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له –إلى أن جاء الله بالإسلام– خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار، فمائتي عام"[١].

لم يصلنا من هذه الحقبة إلا تلك القصائد في صورتها الناضجة فنيًا، وهي غيض من فيض مقارنة بالأشعار التي لم تصلنا. وقال أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم، مما قالت العرب، إلا أقله، ولو جاءكم وافراً، لجاءكم علم وشعر كثير"[٢].

فقدان معظم الشعر من هذه الحقبة، ووصول البعض الآخر إلينا في صورة قصائد مكتملة البناء، يضفي نوعًا من الغموض على المراحل المبكرة التي مر بها الشعر الجاهلي، ويبقيها في طي المجهول. مما يجعل كل ما يذهب إليه الباحثون حول نشأة الشعر ومحاولة تحديد أوليته مجرد اجتهاد شخصي، لا يرقى إلى مستوى القطع والجزم.

لذا، فإن موضوع البحوث الأدبية والنقدية هو المادة التي في حوزتنا من الآثار الأدبية، وبخاصة النتاج الشعري ".. وإذا كان الناقد الأول قد ظهر إلى الوجود بعد الشاعر الأول، وإذا كانت أوليات الشعر العربي غير معروفة لنا؛ فإن أوليات النقد الأدبي، تبعًا لذلك، قد غابت عنا"[٣].

وحتى ما وصل إلينا من النقد مواكبًا لشعر هذه الحقبة، لا ينطبق عليه مصطلح النقد بالمفهوم الدقيق، أي بوصفه لونًا أدبيًا له ضوابطه وقوانينه

الخاصة في تقدير الآثار الأدبية وبيان قيمتها ودرجتها، انطلاقًا من تفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها.

ونظرًا لأن هذا النوع من النقد يفتقر إلى قواعد فنية يبنى عليها، وذوق منظم يحتكم إليه، فكل ما يمكن أن يقال فيه هو أنه مجرد تفاعل عفوي مع النص الشعري ليس إلا... لذلك يتحرز كثير من الباحثين –توخيًا منهم للدقة– من أن يخلعوا عليه صفة النقد إلا تجوزًا، اقتناعًا منهم بأنه مجرد "ملاحظات على الشعر والشعراء، قوامها الذوق الطبيعي الساذج"[٤]، أو "ذوق نقدي غير مسبب يقف عند الجزئيات ويقفز إلى تعميمات خاطئة، تجعل من شاعر أشعر الناس لبيت قاله"[٥].

لذا يهدف هذا البحث إلى استكشاف وتحليل النقد الشعري عند العرب قبل الإسلام، وذلك من خلال دراسة المنهجيات والتطبيقات النقدية المستخدمة في تلك الحقبة. يسعى البحث إلى فهم الكيفية التي تعامل بها النقاد الأوائل مع النصوص الشعرية، وتحديد ما إذا كانت هناك معايير نقدية معترف بها، أم أن النقد كان يعتمد بشكل رئيسي على الذوق الفردي والتفاعل العفوي مع النص.

حدود البحث

في إطار دراسة نقد الشعر عند العرب قبل الإسلام، يركز هذا البحث على تعريف مصطلح النقد كما تجلّى في تلك الحقبة الزمنية، مع عرضٍ للشواهد النقدية البارزة التي تعكس كيفية تعامل النقاد الأوائل مع الشعر. يهدف البحث إلى استعراض تطور النقد الأدبي في هذه الفترة من خلال استقراء وتحليل الأمثلة التي تحتوي على الأفكار النقدية الرئيسية المتعلقة بالشعر. ومن خلال هذا النهج، يسعى البحث إلى تقديم فهم معمّق للمنهجيات التي اتبعها النقاد وتطبيقاتها العملية في تقييم النصوص الشعرية آنذاك.

منهج البحث

يعتمد البحث على منهج وصفي تحليلي، حيث يتم استعراض النصوص الشعرية والنقدية المتاحة من فترة ما قبل الإسلام. سيتم تحليل هذه النصوص بهدف استخراج المبادئ النقدية التي يمكن استنباطها منها، مع التركيز على الأساليب اللغوية والجمالية المستخدمة في تقييم الشعر. سيتم أيضًا مراجعة الأدبيات النقدية القديمة والحديثة التي تناولت هذا الموضوع، بهدف تقديم نظرة شاملة ومتكاملة حول نقد الشعر في تلك الفترة. وسيتم مقارنة النتائج المستخلصة من النصوص مع ما ورد في المصادر الأدبية الأخرى، لتحديد مدى تأثير السياق الثقافي والاجتماعي على النقد الشعري في تلك الحقبة.

الدراسات السابقة:

دراسة طه أحمد ابراهيم بعنوان: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، والتي كانت عملًا رائدًا في استعراض مسيرة النقد الأدبي العربي. إذ تناول إبراهيم في دراسته تطور النقد منذ العصر الجاهلي وحتى القرن الرابع الهجري، مبرزًا الأصول العامة للنقد والعناصر الضرورية لبقاء النصوص الأدبية. كما استعرض القوانين الإجمالية للنقد العربي وتأثّرها بالعوامل الحضارية المختلفة. أشار إلى أهمية الذوق الأدبي الصادق وضرورة الاحتياط في الأحكام النقدية. قدمت الدراسة تحليلاً شاملاً لتاريخ النقد، لكنها لم تكتمل بسبب وفاة المؤلف، مما دفع زملاءه لنشرها تكريمًا له[٦].

دراسة كريمة بن حمو، و فاطمة بلفضل التي تناولت تتبع الرؤى النقدية التي حاولت قراءة النص الشعري الجاهلي، ساعية لوضعها في ميزان النقد. إذ طرحت إشكالية مركزية تساءلت عن قدرة النقاد العرب على تشكيل نظرية نقدية تمثل خصائص النص الجاهلي في الصورة والدلالة، الشكل والمضمون،

والوظيفة والهدف. كما استفسرت عن مدى إمكانية الاعتماد على المناهج الحداثية وما بعد الحداثية لاستنطاق هذا الشعر وتعويض الفراغ الظاهر.

وزّعت الدراسة إلى مدخل وفصلين. في المدخل، استعرض الباحثون الإطار المفاهيمي وتناولوا إسهامات النقاد القدامى والمحدثين، ممهّدين لدراسة معمّقة. تناول الفصل الأول "سياق النص الشعري الجاهلي بين النقد ونقد النقد"، حيث استعرضت مدونات نقدية وضعت نتائجها في ميزان النقد، مع التركيز على الجانب الإجرائي. أما الفصل الثاني، "النسق النص الشعري الجاهلي بين النقد ونقد النقد"، فقد ركّز على مدونات نقدية تناولت النص في سياق الحداثة وما بعد الحداثة.[٧]

النقد الأدبي ما قبل الإسلام:

لا شك أنَّ النقد ملازم للأدب منذ نشأتهما، فهما يهتمان بالذوق والجمال، ويعتمدان على التأثر بالموصوف والانفعال به، ثم التعبير عن هذا التأثر بنظم الألفاظ المناسبة المترابطة. فالشاعر، عندما يصف شيئاً ما، يتأثر أولاً بهذا الشيء، ثم يقوم بعملية تقويم لكلامه ليكون متناسقاً وسليماً ومعبراً عن مشاعره الصادقة تجاه الموصوف. هذه العملية التقويمية هي في جوهرها ما يُسمَّى بالنقد.

إذاً، الأدب والنقد هما وجهان لعملة واحدة، حيث يتلازمان ولا ينفصل أحدهما عن الآخر. إلا أن الأدب قد حظي بتفوق من حيث جمعه وتدوينه ودراسته وتأريخه وتوثيقه وتداوله بين الناس عبر الزمن، بينما لم يحظَ النقد الشعري بنفس القدر من الاهتمام. يجب أن نشير هنا إلى أن بعض النقاد المعاصرين يشككون في وجود النقد الأدبي المنهجي في العصور القديمة، معتبرين أن ما كان موجوداً من نقد يفتقر إلى القوانين التحليلية الموضوعية والقواعد التفكيكية العلمية[٨].

ومع ذلك، فإن النقد الآني الذي كان يلازم الشعر قد وُجد منذ القدم، إلا أنه لم ينل نفس القدر من الدراسة والاهتمام الذي حظي به الشعر. هذه الرؤية تسلط الضوء على أهمية النقد في تقييم الأدب، وتؤكد على ضرورة دراسته وفهمه كجزء لا يتجزأ من التراث الأدبي العربي، خاصة في فترة ما قبل الإسلام.

يُطلق النقد في اللغة على عدة معانٍ، أهمها في هذا السياق:

١ . **الاختبار والتمييز:** يُقال: نقد الشيء نقدًا، أي نقَره لاختباره أو لتمييز جيده من رديئه. ويُقال: نقد الدراهم والدنانير وغيرها نقدًا وتنقادًا، أي ميَّز جيدها من رديئها[٩]. ومنه قول الفرزدق:

تنفى يداها الحصى في كل هاجِرَةٍ

نَفْيَ الدَراهيمِ تنقاد الصياريف [١٠]

٢. **العيب والانتقاص:** يُقال: فلان ينقد الناس، أي يعيبهم ويغتابهم. وفي حديث أبي الدرداء: "إن نقدت الناس نقدوك، وإن تركتهم تركوك"[(١١)]. ويعني: إن عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثل صنيعك، وإن كففت عن عيبهم تركوك. ويُقال أيضًا: "انتقد فلان الشعر على قائله"، والتعدية بالجار تُشعر بالعيب. والعيب لون من ألوان الحكم، حيث يقتصر بعض النقاد على هذا المعنى لأسباب متعددة، منها: طبيعة النقاد التي تدفعهم لنقد الآخرين، أو عدم قدرتهم على إدراك المحاسن والمزايا، أو رغبتهم في إظهار الأخطاء والمساوئ لتجنبها، أو تفضيل إبراز وجوه المخالفة في الرأي والاتجاه[(١٢)].

على أنّ المعنى اللغوي الأول، وهو الاختبار والتمييز، هو الأنسب والأليق بكلمة النقد في الاصطلاح الحديث ومن منظور أكثر المتقدمين[(١٣)]؛ حيث يشمل

معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم، وهذا هو جوهر النقد الأدبي. فلنعرض معناه في الاصطلاح:

النقد في الاصطلاح: هو دراسة الأعمال الأدبية وتفسيرها وتحليلها، ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها[١٤]، أو هو تمييز الأدب لمعرفة جيده من رديئه، وإخراج الزيف منه[١٥]. وهذا التمييز يتطلب:

أولاً: تحليل الأدب، أي تفسيره وكشف حيويته.

ثانيًا: تقويمه ووضعه في المنزلة الأدبية التي يستحقها، والحكم عليه بالجودة أو الرداءة[١٦].

يشترط الكتَّاب فيمن يتصدى لأمر النقد شروطًا عديدة، تُلخَّص في أمرين:

أولاً: الخبرة والدربة: يقول القاضي الجرجاني: لكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها، ويُستعان بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها[١٧]. والشعر صناعة يعرفها أهل العلم به، الذين كوَّنوا بخبرتهم وطول ممارستهم له ذوقًا أدبيًّا يُمكِّنهم من تذوقه ونقده. هذا ما قرره ابن سلام بقوله: "الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر الصناعات، ومنها ما تُثقف العين، ومنها ما يُثقف الأذن، ومنها ما يُثقف اليد، ومنها ما يُثقف اللسان"[١٨]. ومضى ابن سلام يضرب الأمثلة بالنخيل والرقيق والقيان، ويرد الحكم في ذلك كله إلى أهل الخبرة والعلم.

ثانيًا: طول المدارسة وكثرة التحصيل: يُطلب من الناقد أن يكون أديبًا وعالمًا بالأدب، إذ يجمع بين البصر بالحكم والاعتدال في الرأي، والإنصاف في القضية. يُضاف إلى ذلك ضرورة إلمام الناقد بالعلوم اللسانية والتاريخ الأدبي والدراسات النقدية، قديمها وحديثها، ليستطيع الحكم على النصوص الأدبية بحيادية ودقة. [١٩]

منهج النقد الأدبي في عصر ما قبل الإسلام

نهج النقد الأدبي في عصر ما قبل الإسلام عدّة مناهج بارزة، منها:

١. **الطبيعة الفطرية للنقد:** كان النقد في هذا العصر يعتمد على ذوق الناقد الفِطريّ، حيث لم تكن هناك قواعد مكتوبة أو أصول مؤسَّسة. كانت هذه القواعد مغروسة في عقل الشاعر وحسِّه الفني، وكان يستمدها من نظرته الشخصية والسليقة العربية، بالإضافة إلى حِسِّه اللغوي الدقيق وما تشير إليه الألفاظ من دلالات ومعانٍ مختلفة. على سبيل المثال، حكم النابغة على شعر حسان بن ثابت استند إلى فَهمه العميق للغة العربية ومعرفته بدلالات الألفاظ. كما أن الذوق العربي العام في ذلك الوقت كان يشير إلى أن الفخر يكون بالآباء وليس بالأبناء. ونقد أهل المدينة للنابغة كان مستمدًا من فهمهم لطبيعة الشعر العربي ونظامه العام، الذي يتميز بالانسجام والتناغم وحركة الروي الموحدة.

٢. **الارتجال في النقد:** كان النقد غالبًا مرتجلًا، حيث يُصدر الناقد حكمه دون دراسة معمَّقة أو تحليل مفصَّل. ومع ذلك، تُظهر بعض القصص مثل قصة النابغة مع حسان بن ثابت أن هناك حالات استثناء حيث يكون النقد مدعومًا بتعليل منطقي وحجة قوية، رغم أن قواعد النقد لم تُذكر بشكل صريح.

٣. **التركيز على الجزئيات:** كان النقد الأدبي في هذا العصر يركز غالبًا على الجزئيات، متجاهلًا باقي الجوانب الفنية للقصيدة. فمثلًا، النقد كان يتجه نحو الألفاظ أو الوزن فقط، دون النظر إلى القصيدة ككل. ويظهر ذلك في قصة المتلمس مع طرفة، حيث نقد طرفة جزءًا من

المعنى بعبارته الشهيرة "أستنوق الجمل"، متجاهلًا باقي الجوانب الفنية الأخرى للقصيدة.

٤. **العمومية في الحكم النقدي:** يتصف الحكم النقدي في هذا العصر بالعمومية، حيث يصدر الناقد حكمه دون ذكر الأسباب أو التعليل. على سبيل المثال، القول بأن المعلقات هي أفضل ما قالت العرب، أو قول النابغة للبيد بن ربيعة: "اذهب فأنت أشعر العرب"، تُعد أمثلة على هذا النوع من الأحكام[٢٠].

٥. **الإيجاز في النقد:** تميز النقد في هذا العصر بالإيجاز، حيث يُصدر الناقد حكمه بعبارة موجزة تحمل المعنى المراد دون شرح مفصل. مثل قول طرفة للمتلمس "أستنوق الجمل"، هذه العبارة المختصرة تحمل حكمًا نقديًا يصف عيبًا في شعر المتلمس، الذي وصف الجمل بصفات الناقة.

بهذه السمات، يعكس النقد الأدبي في عصر ما قبل الإسلام مستوى من البساطة والارتجال، ولكنه في الوقت نفسه يحمل عمقًا في الفهم والذوق الفني، مما يجعله فريدًا ومتميزًا في تاريخ النقد الأدبي العربي.

واقع نقد الشعر ماقبل الإسلام:

النقدُ الأدبيُّ ما قبل الإسلام يحملُ في طيَّاته جوانبَ مهمةً تُسلِّطُ الضوء على طبيعةِ الأدبِ في تلكَ الحقبةِ. كانتْ طبيعةُ النقدِ تتميَّزُ بسماتٍ خاصةٍ، تنبعُ من تفاعلِ المجتمعِ مع الفنونِ والآدابِ. اعتمدَ النقَّادُ على الذَّوقِ الفطريِّ كمرجعٍ أساسيٍّ في تقييمِ الشِّعرِ، كما كانَ يفتقرُ النقدُ إلى منهجيَّةٍ واضحةٍ، ممَّا جعلَ الأحكامَ تعتمدُ بشكلٍ كبيرٍ على الانطباعاتِ الفرديةِ واللحظيةِ. سنتناولُ في هذه الفقرةِ أبرزَ ملامحِ النقدِ الأدبيِّ ما قبل الإسلام، والتي تتجلَّى في نقاطٍ مثلَ الذَّوقِ

الفطريِّ، غيابِ المنهجِ الواضحِ، التركيزِ على الجزئياتِ، الطَّابعِ الانطباعيِّ، وتأثيرِ الانطباعاتِ الآنيةِ.

١. **هيمنة الذوق الفطري:** النقدُ ما قبل الإسلام كان يعتمدُ بشكلٍ كبيرٍ على الذوقِ الفطريِّ للناقدِ، حيثُ كان النقادُ يعتمدون على حساسيتهم الطبيعيةِ تجاهَ الجمالِ الفنيِّ والتعبيريِّ. الذوقُ، في أصلهِ اللغويِّ، يشيرُ إلى التعرُّفِ على الطعمِ، وهو قوَّةٌ مرتبةٌ على السطحِ الظاهرِ من اللسانِ لإدراكِ ما يردُّ عليه من كيفياتٍ ملموسةٍ مثلَ الحرارةِ والبرودةِ واليبوسةِ[٢١]. مجازياً، قد يتّسع معناه، فيطلق مجازاً، على كل تجربة في الحياة، كقول المتنبي:

إِذَا مَا النَّاسُ جَرّبَهُمْ لَبِيبٌ ... فَإِنّي قَدْ أَكَلْتُهُمُ، وَذَاقَا[٢٢]

في سياقِ النقدِ الأدبيِّ، يعبرُ الذوقُ عن القدرةِ على الحكمِ الصحيحِ على الأعمالِ الفنيةِ من حيثُ إظهار محاسنها ولطائفها التي قد تكونُ غيرَ مرئيةٍ للشخصِ العاديِّ.

يرى النقادُ ما قبل الإسلام أنَّ اللذةَ الجماليةَ هي المعيارُ الرئيسيُّ لتقييمِ العملِ الفنيِّ. يقولُ أناتول فرانس: "إنَّ اللذةَ التي يعطيها الأثرُ هي المقياسُ الوحيدُ لقيمته"[٢٣]. هذا التركيزُ على المتعةِ الجماليةِ يعكسُ تأكيدًا على الذوقِ الفطريِّ كمرجعٍ أساسيٍّ في النقدِ.

ويقولُ الجاحظ: " ...ولكن اعرضه (يعني الأدب) على العلماء في عرض رسائل، أو أشعار، أو خطب، فإن رأيت الأسماع تصغي إليه، والعيون تحدج إليه، ورأيت من يطلبه ويستحسنه، فانتحله"[٢٤].

في فترة ما قبل الإسلام، لم يكن النّاقد ملتزماً بضوابطَ أو قوانينَ علميّةٍ تبرّر أحكامه النّقديّة؛ بل كانت أحكامه تستند أساساً إلى الإحساس النّاتج عن الذّوق الفطريّ. هذا الذّوق يُمكِّن النّاقد من التّفريق بين الجيّد والرّديء في الشّعر، ويجعل حكمه النّقديّ يكتسب نضجاً فنّيّاً. فالحكم يتأثّر بهذا الإحساس، سواءً كان قويّاً أو ضعيفاً؛ حيث يشعر العربيّ بأثر الشّعر إحساساً فطريّاً بسيطاً، ويتذوّقه بطبيعته وسجيّته. يعتمد النّاقد في حكمه على ذوقه وسليقته، وهما ما يوجّهانه نحو تمييز الجيّد من فنون القول، وإلى المبرَّز من الشّعراء[٢٥].

٢. **غياب المنهج الواضح:** ما قبل الإسلام وفي صدرِ الإسلامِ، لم يكن النقادُ يتقيدون بمنهجٍ نقديٍّ واضحٍ ومحددٍ. كان النقدُ أكثرَ عفويةً وبساطةً، حيث لم تكن فكرةُ المنهجيةِ موجودةً كما نفهمها اليومَ. لم يكن هناكَ اعتمادٌ على قوانينَ أو قواعدَ نقديةٍ واضحةٍ يمكن أن تبررَ الأحكامَ النقديةَ الصادرةَ، بل كانت الأحكامُ تعتمدُ بشكلٍ كبيرٍ على الإحساسِ الفطريِّ والذوقِ الشخصيِّ.

٣. **الذرية:** كانت النزعةُ الذريةُ سمةً بارزةً في النقدِ ما قبل الإسلام، حيث يميلُ الناقدُ إلى تجزئةِ القضيةِ موضعِ النقدِ إلى أجزاءٍ صغيرةٍ، والتركيزِ على الجزئياتِ دونَ النظرِ الشموليِّ[٢٦]. هذا النهجُ يؤدي إلى إصدارِ أحكامٍ نقديةٍ جزئيةٍ قد تكونُ مبنيةً على تأثيراتٍ فوريةٍ ومحدودةٍ. على سبيل المثال، كان النابغة الذبيانيُّ يقولُ لقيسِ بن الخطيم:

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كَاطِّرَادِ المَذَاهِبِ ... لِعَمْرَةَ وَحْشًا غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبِ؟

"أنت أشعر الناس، يا بن أخي". وقيل إنّ النابغة، ما إن سمع الشطر الأول من القصيدة، [أَتَعْرِفُ رَسْماً كَاطِّرَادِ المَذَاهِبِ]، حتى قال له: "أنت

أشعر الناس"[٢٧]. وقوله للخنساء: "لولا أنّ أبا بصير [يعني الأعشى] أنشدني آنفاً، لقلت إنّك أشعر الجنّ والإنس"، وذلك حين أنشدته قولها:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ[٢٨]

٤. **الانطباعية:** الانطباعيةُ في النقدِ ما قبل الإسلام تعني التواصلَ المباشرَ بين الشاعرِ والمتلقي، وما يتولدُ من انطباعاتٍ جماليةٍ وعاطفيةٍ. النقدُ في هذه الفترةِ كان يعتمدُ بشكلٍ كبيرٍ على ردودِ الفعلِ الفوريةِ والانطباعاتِ اللحظيةِ[٢٩]. هذا النوعُ من النقدِ يعتمدُ على الذوقِ الجماليِّ الشخصيِّ للناقدِ، والذي يحددُ مدى التأثيرِ والانطباعِ الذي يتركهُ الشعرُ. من الأمثلةِ على ذلك، ما روي من "أنّ النابغة الذبياني، نظر إلى لبيد بن ربيعة، وهو صبي مع أعمامه، على باب النعمان بن المنذر، وسأل عنه، فنسب له، فقال: يا غلام، إنّ عينيك لعينا شاعر، أفتقرض من الشعر شيئاً؟ فقال: نعم، يا عم. قال: فأنشدني شيئاً مما قلته، فأنشده قوله: [أَلَمْ تُلْمِمْ عَلَى الدِّمَنِ الخَوَالِي]، فقال له: يا غلام، أنت أشعر بني عامر. زدني يا بنيّ، فأنشده: [طَلَلٌ لِخَوْلَةَ بِالرُّسَيْنِ قَدِيمُ]، فضرب بيديه على جنبيه، وقال: اذهب، فأنت أشعر قيس كلّها"[٣٠].

٥. **الآنية:** كان النقادُ ما قبل الإسلام يميلون إلى إصدارِ أحكامٍ نقديةٍ فوريةٍ مبنيةٍ على انطباعاتهم الآنيةِ تجاهَ الأعمالِ الشعريةِ. هذه الأحكامُ غالباً ما كانت تعكسُ افتتاناً لحظياً بالشعرِ، مما يجعلها سطحيةً وغيرَ مبنيةٍ على تحليلٍ متعمقٍ أو تفكيرٍ نقديٍّ طويلِ الأمدِ[٣١]. النابغةُ الذبيانيُّ، على سبيلِ المثالِ، كان يجعلُ من لبيدِ بنِ ربيعةَ أشعرَ بني عامرَ بناءً على انطباعهِ اللحظيِّ من قصيدةٍ واحدةٍ.

٦. **غياب التعليل المفصل:** الغرض من التعليل هو إيضاح الأحكام النقديَّة وتبرير نتائجها، وذكر الأسباب التي تبرر هذه الأحكام وتسوغها فنياً، ومنطقياً، وأخلاقياً حتى. يُعتبر التعليل سمةً من سمات العقل البشري حين يصل إلى مستوى معين من الرُّقي الحضاري والنُّضج الفكري. لذلك، يعتقد بعض الباحثين أنّ التعليل شرطٌ لازمٌ للناقد إذا ما أراد أن تكون أحكامه النقديَّة مقنعة، "... وإنّني على عقيدة راسخة بأنّه لا نقد، إلاّ إن كان الناقد على استعداد لتعليل رأيه. فإن قال: هذا حسن، وذلك رديء، كانت عليه البيّنة، فلماذا كان الحسن حسناً، والرديء رديئاً؟[٣٢]."

ومع ذلك، هذا الرأي –على وجاهته– ليس من الضروري التسليم به على علاته؛ لأنه، وإن صدق على الناقد الذي قُدّر له أن يعيش في بيئةٍ لها حظٌّ وافر من مظاهر التقدُّم الأدبي والعلمي، فإنّه لا يصدق على عرب ما قبل الإسلام مثلاً؛ لأنهم –بتعبير ابن خلدون– "أعرق في البدو، وأبعد عن العمران الحضري، وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها". فهم ما زالوا يعيشون في طور يتصف بالبساطة في جميع مناحي حياتهم، فمن الطبيعي أن تكون ملاحظاتهم النقدية "مبنية على الذوق والفطرة، التي تتأثر بما تسمع من قول، فتصدر الحكم عليه غير معلل، أو غير مشفوع بحيثياته.[٣٣]"

من ذلك، ما يُروى من أنّ علقمة بن عبدة أنشد عمرو بن الحارث الغساني قصيدته التي مطلعها:

طَحَا بِك قَلْبٌ فِي الحِسَانِ طَرُوبُ ... بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

وأنشده النابغة قصيدته التي مطلعها:

كِلِيني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِب ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ

وأنشده حسان قصيدته التي مطلعها:

أَسَأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ ... بَيْنَ الجَوَابِي فَالبُضَيْعِ فَحَوْمَلِ

ففضَّل حساناً عليهما، ودعا قصيدته (البتارة)؛ لأنها بترت غيرها من القصائد[٣٤].

فعمرو بن الحارث هنا، هو مثال الناقد المتخصص، المشهود له بسلامة الذوق، وسداد الأحكام النقدية، فبتقليله من شأن قصيدتي علقمة والنابغة، مقارنةً بقصيدة حسان، يكون قد جسَّد حسَّه بالجمال تجاه قصيدة حسان.

٧. الإيجاز

غالباً ما كانت الأحكام النقدية ما قبل الإسلام موجزةً جداً. مثل ملاحظة طرفة بن العبد عندما سمع قول المتلمس، أو المسيب بن علس، في وصف جمل:

وَإِنِّي لَأُمْضِي الهَمَّ عِنْدَ اِحْتِضَارِهِ ... بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مِكْدَمِ

فعلَّق عليه بقوله المشهور الذي جرى مجرى المثل: "استنوق الجمل"[٣٥]. وهي، كما نرى، لا تزيد على جملة واحدة.

وقد يكون الحكم النقدي واقعاً في جملتين موجزتين أو أكثر، مثل نقد النابغة لبيتي حسان عندما أنشده قوله، مفتخراً :

لَنَا الجَفنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعنَ بِالضُّحَى ... وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَلَدْنَا بَنِي العَنْقَاءِ وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ ... فَأَكْرِمْ بِنَا خَالاً وَأَكْرِمْ بِنَا اِبْنَما

فقال له النابغة: "أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفتخر بمن ولدك."[٣٦]

وكاحتكام علقمة بن عبدة وامرئ القيس إلى امرأته أم جندب في أيّهما أشعر، فقالت: "قُولَا شعراً تصفان فيه الخيل، على رويّ واحد، وقافية واحدة". فقال امرؤ القيس:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدُبِ ... لِنَقْضِيَ حَاجَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

حتى بلغ قوله:

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ ولِلسَّاقِ دِرَّةٌ ... وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وقع أَخْرَجَ مُهْذِبِ

وأنشدها علقمة قوله:

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرَانِ فِي غَيْرِ مَذْهَبِ ... وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ

حتى انتهى إلى قوله:

فَأَدْرَكَهُ حَتَّى ثَنَى مِنْ عِنَانِهِ ... يَمُرُّ كَغَيْثٍ رَائِحٍ مُتَحَلِّبِ

وبعد سماعها القصيدتين، قالت لامرئ القيس: "علقمة أشعر منك". قال: "وكيف ذاك؟" قالت: "لأنك قلت:

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ ولِلسَّاقِ دِرَّةٌ ... وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وقع أَخْرَجَ مُهْذِبِ

فجهدت فرسك بسوطك، ومريته بساقك، وقال علقمة:

فَأَدْرَكَهُ حَتَّى ثَنَى مِنْ عِنَانِهِ ... يَمُرُّ كَغَيْثٍ رَائِحٍ مُتَحَلِّبِ

فأدرك طريدته، وهو ثان من عنان فرسه، لم يضربه بسوط، ولا مراه بساق، ولا زجره. قال: "ما هو بأشعر مني، ولكنك له وامق"، فطلقها، فخلف عليها علقمة، فسمي بذلك الفحل[٣٧].

وخلاصة القول؛ أنَّ النقد ما قبل الإسلام يمثل مرحلةً متقدمة من تاريخ النقد الأدبي عند العرب؛ مرحلة أملتها طبيعة ظروفهم البيئية وطابعهم البدوي، حيث إنَّ أحكامهم النقدية ترجع أساساً إلى العاطفة والذوق الفطري، ولم يكونوا مهيَّئين عقلياً ونفسياً للخوض في قضايا التحليل وذكر العلل والأسباب لما يرسلونه من أحكام نقدية.

الخاتمة:

في خاتمة هذا البحث، نستعرض أهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها حول نقد الشعر عند العرب قبل الإسلام. يتجلّى لنا بوضوح أن النقد الأدبي في تلك الفترة الزمنية كان يتميز بخصائص فريدة، تعكس طبيعة العصر وثقافة المجتمع.

أولى هذه الخصائص هي هيمنة الذوق الفطري على عملية النقد. فقد اعتمد النقاد على حسّهم الفطري وحساسيتهم الطبيعية تجاه الجمال الفني والتعبيري، دون أن يكون هناك منهج نقدي واضح أو قواعد محددة. كانت الأحكام النقدية تُبنى على انطباعات شخصية وآنية، مما جعل النقد يتسم بالعفوية والارتجال، ويبتعد عن التحليل المفصل والتعليل الدقيق.

غياب المنهجية الواضحة في النقد الأدبي كان سمة بارزة في تلك الفترة. فلم تكن هناك قواعد مؤسَّسة أو منهجيات محددة تُستَخدَم في تقييم الشعر، بل كانت الأحكام تصدر بناءً على تفاعل مباشر مع النصوص الشعرية. هذا التفاعل كان يتجلى في التركيز على الجزئيات والانطباعية، حيث كان النقاد يركزون على تفاصيل صغيرة من القصيدة، متجاهلين الجوانب الفنية الأخرى. وغالباً ما كانت هذه الأحكام تعتمد على تأثيرات لحظية، ما أدى إلى إصدار أحكام عامة غير مبنية على تحليل معمق.

الطابع الانطباعي والآنية كانا يسيطران على النقد الأدبي في تلك الحقبة. فقد كان النقاد يصدرون أحكامهم النقدية بناءً على ردود الفعل الفورية والانطباعات اللحظية، مما جعل هذه الأحكام تبدو سطحية وغير مستندة إلى تفكير نقدي طويل الأمد. كما أن الإيجاز في النقد كان سمةً أخرى تميز النقد الأدبي في تلك الفترة، حيث كانت الأحكام تُعبر بعبارات مختصرة تحمل المعنى المراد دون تفصيل أو شرح مطول.

وبالرغم من هذه الخصائص، فإن النقد الأدبي عند العرب قبل الإسلام يُعد جزءاً مهماً من التراث الأدبي العربي. فهو يعكس طبيعة المجتمع وثقافته في تلك الحقبة، ويُسهم في فهم أصول الأدب العربي وتطوره عبر الزمن. إن دراسة هذا النقد تفتح لنا آفاقاً جديدة لفهم العلاقة بين الأدب والنقد في مراحل تطور الأدب العربي، وتبرز أهمية الذوق الفطري كمرجع أساسي في تقييم الأعمال الأدبية.

الهوامش

[١] الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، ط ٢ – ١٩٦٥ م، ١/ ٧٤.

[٢] طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ١ / ٢٥.

[٣] تاريخ النقد الأدبي عند العرب: د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط ٣ – ١٩٧٤ م، ص: ٢٠ .

[٤] أصول النقد الأدبي: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٠ – ١٩٩٤ م، ص: ١٠٩ .

[٥] النقد المنهجي عند العرب: د. محمد مندور، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢٠٠٤ م، ص: ١١ .

[٦] طه أحمد ابراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، أدب الجاهلية العربي، ١٨٠ صفحة، ٢٢ أبريل ٢٠٠٨، archive.org، ص: ٣٥,٧٠٠.

[٧] كريمة بن حمو، و فاطمة بلفضل، "النص الشعري الجاهلي بين النقد ونقد النقد: دراسة نماذج"، جامعة ابن خلدون–تيارت، ٢٠٢١، ص: ١١.

[٨] أ.محمد عامر خليفة، "النقد الأدبي في العصر الجاهلي"، *مجلة كلية الإلهيات بجامعة إسكيشهير عثمان غازي*، العدد الرابع، ٢٠١٦، ص ٤١–٦٨.

[٩] المعجم الوسيط: مادة " نقد ".

[١٠] اللسان : مادة " نقد"، ويروى نفى الدراهيم، وفى البيت تشبيه حركة الناقة فى الحصا بحركة الصيارفة فى النقود المعدنية، انظر: اتجاهات النقد الأدبى العربى لأستاذنا الدكتور/ محمد السعدى فرهود ص ٨.

[١١] انظر اللسان : مادة " نقد ".

[١٢]اتجاهات النقد الأدبى العربى لأستاذنا الدكتور / محمد السعدى فرهود ص ١١، ١٢.

[١٣] انظر: أصول النقد الأدبى للأستاذ / أحمد الشايب ص ١١٥.

[١٤] انظر: أصول النقد الأدبى ص ١١٥، ١١٦.

[١٥] اتجاهات النقد الأدبى العربى لأستاذنا الدكتور / محمد السعدى فرهود ص ١٠، ١١.

[١٦] المرجع السابق ص ١٢.

[١٧] الوساطة للقاضى الجرجانى ص ١٠٠ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى ط . بيروت.

[١٨]طبقات فحول الشعراء لابن سلام "ج١ ص ٥، والعمدة ج١ ص ١١٨.

[١٩] فى محيط النقد الأدبى للأستاذ الدكتور/ إبراهيم على أبو الخشب ، ص ٤٧ بتصرف.

[٢٠] أ.محمد عامر خليفة، "النقد الأدبي في العصر الجاهلي"، *مجلة كلية الإلهيات بجامعة إسكيشهير عثمان غازي*، العدد الرابع، ٢٠١٦، ص ٦٥-٦٦.

[٢١] الكليات: أبو البقاء أيّوب بن موسى الحسيني الكفوي، اعتناء د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط ٢- ١٩٩٨ م، ص: ٤٦٢.

[٢٢] ديوان أبي الطيب المتنبي: تحقيق د. عبد المنعم خفاجي/سعيد جودة السحار/د. عبد العزيز شرف،مكتبة مصر، الفجالة، ص: ٢١٩

[٢٣] النقد الأدبي: كارلوني وفيللو، ترجمة كيتي سالم، مراجعة جورج سالم، منشورات دار عويدات، بيروت – باريس، ط ٢ – ١٩٨٤ م، ص: ٧١.

[٢٤] البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٧ – ١٩٩٨ م، ١/ ٢٠٣.

[٢٥] تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري): المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم، هيئة الفيصلية – مكة المكرمة، ط ٢٠٠٤ م مزيدة ومنقحة، ص: ٣١.

[٢٦] تاريخ النقد الأدبي عند العرب: عبد العزيز عتيق، ص: ٢١.

[٢٧]الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق د. إحسان عباس / د. إبراهيم السعافين / أ. بكر عباس، دار صادر – بيروت، ط ٣ – ٢٠٠٨ م، ٣ / ١٠.

[٢٨] المصدر السابق نفسه: ٩ / ٢٥٢.

[٢٩] ينظر النقد الأدبي: كارلوني وفيللو، ص: ٦٧.

[٣٠] الأغاني: الأصفهاني، ١٥ / ٢٥٧ .

[٣١] التفكير النقدي عند العرب: د. عيسى علي العاكوب، دار الفكر، دمشق – سورية، ط ١ – ١٩٩٧ م، ص: ٣٣.

[٣٢] في فلسفة النقد: د. زكي نجيب محمود، دار الشروق، ط ٢ – ١٩٨٣ م، ص: ٢٢١ .

[٣٣] تاريخ النقد الأدبي عند العرب: عبد العزيز عتيق، ص: ٣٤ .

[٣٤] الأغاني: الأصفهاني، ١٥ / ١٠٩ .

[٣٥] ينظر لسان العرب: الإمام العلاّمة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر – بيروت، ١٠/ ٣٦٣

[٣٦] الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ١ – ١٩٩٥ م، ص: ٧٦.

[٣٧] ينظر الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ١ / ٢١٩.

قائمة المصادر والمراجع:

١. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، "الحيوان"، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.

٢. محمد بن سلام الجمحي، "طبقات فحول الشعراء"، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الجزء الأول، الطبعة الأولى.

٣. عبد العزيز عتيق، "تاريخ النقد الأدبي عند العرب"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م.

٤. أحمد الشايب، "أصول النقد الأدبي"، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة، ١٩٩٤م.

٥. محمد مندور، "النقد المنهجي عند العرب"، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٦. طه أحمد إبراهيم، "تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري"، أدب الجاهلية العربي، ١٨٠ صفحة، ٢٢ أبريل ٢٠٠٨، archive.org.

٧. كريمة بن حمو وفاطمة بلفضل، "النص الشعري الجاهلي بين النقد ونقد النقد: دراسة نماذج"، جامعة ابن خلدون – تيارت، ٢٠٢١.

٨. محمد عامر خليفة، "النقد الأدبي في العصر الجاهلي"، مجلة كلية الإلهيات بجامعة إسكيشهير عثمان غازي، العدد الرابع، ٢٠١٦.

٩. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، "لسان العرب"، دار صادر، بيروت، الجزء العاشر.

١٠. أبو الفرج الأصفهاني، "الأغاني"، تحقيق د. إحسان عباس / د. إبراهيم السعافين / أ. بكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨م.

١١. أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، "الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء"، تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

١٢. زكي نجيب محمود، "في فلسفة النقد"، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

١٣. د. عيسى علي العاكوب، "التفكير النقدي عند العرب"، دار الفكر، دمشق – سورية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٤. كارلوني وفيللو، "النقد الأدبي"، ترجمة كيتي سالم، مراجعة جورج سالم، منشورات دار عويدات، بيروت – باريس، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.

١٥. أبو عبد الله محمد بن قتيبة، "الشعر والشعراء"، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، الجزء الأول.